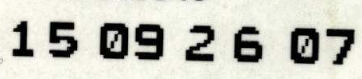


مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبد العزيز بالرياض

• نقش كتابي لإنشاء سبيل حراء عام ١٣٦١هـ (ص ٢٠٣) •



• السنة التاسعة عشرة •



ربيع الآخر، جمادى الأولى، جمادى الآخرة ١٤١٤هـ

بلاد السراة من خلال كتاب صفة جزيرة العرب للهمداني

إعداد: د/ غيثان بن علي بن جريس

المقدمـــــــــة:

يعـود السبب في اختياري هـذا البحث إلى محاولـة معرفـة بعض الجوانب التاريخية والسيـاسية والحضارية لبـلاد السراة الممتدة من الحجاز شمالا إلى اليمن جنوبـا . ومن يستقص تاريخ هذه المنطقـة خلال العصور الإسـلامية المبكـرة والـوسيطـة يجد شح المادة العلمية التي تتعـرض لها ، مع العلم أن بها بعض العـوامل المساعـدة لنشوء تاريخ وحضـارة بها ؛ فهي حلقة الـوصل بين

اليمن في الجنوب والحجاز وما يليه من البلاد الممتدة شمالا ، إلى جانب كثافتها البشرية التي أسهمت وتسهم في أعمال حضارية متنوعة داخل البلاد وخارجها ، مع ما بها من الموارد الاقتصادية المتعددة كالزراعة ، وممارسة الكثير من الصناعات اليدوية والحرف التقليدية ، وكذلك النشاطات التجارية المختلفة في كثير من السلع . وتوفر مثل هذه الأمور في بلاد السراة لم يكن مغريا للجغرافيين والمؤرخين ، فيدونوا بعض الجوانب التاريخية والحضارية عن هذه البلاد ، والسبب في ذلك يعود إلى صعوبة تضاريس المنطقة لما يوجد بها من جبال ، ووهاد ، وهضاب وعرة المسالك ، أدى هذا إلى عدم الرغبة عند المؤلفين الأول ، فلم يكن مجال اهتمامهم ، وإن توفرت الرغبة لبعض منهم ، أن ينطلقوا من الحجاز متجهين صوب اليمن عن طريق الساحل ، أو عن الطريق الواقعة في الأجزاء الشرقية من بلاد السراة ، لا سيما وأنها كانت مرتبطة منذ أمد بطرق تجارية عدة يطرقها الطراق باستمرار ، الأمر الذي جعل الطريق الواقعة في المناطق المرتفعة من السراة ، والممتدة من الطائف شمالا إلى نجران وصعدة وصنعاء جنوبا ، مهملة نوعا ما ، إلى جانب التركيبة القبلية المتينة فيها ، مع صعوبة سكناها ، مما ساعد على انطوائها على نفسها ، فقلت المعلومات عنها ، وهذا من الأسباب التي جعلتني أخوض بقلمي مع صعوبة مهمتي في الحديث عنها من خلال كتاب «صفة جزيرة العرب للهمداني» الذي أسهب أكثر من غيره من كتب التراث الإسلامي في الحديث عن الناحية الجغرافية لبلاد السراة ، وعن التركيبة السكانية فيها ، فأشار إلى بعض الجوانب الاجتماعية والطرق المعيشية ، وإلى بعض الأحوال التجارية ، والفكرية والعلمية ، ونوع من التقسيمات الإدارية ، والطرق الزراعية والرعوية وغيرها ، وبعمله هذا يكون مؤلِّفه (صفة الجزيرة) أفضل من غيره في تدوين هذه

الجوانب عن بلاد السراة خلال الفترة التاريخية الإسلامية الأولى منها والوسيطة، لهذا كان اعتمادنا عليه راجين من الله السداد.

شخصية الهمداني وحياته:

الهمداني هو الحسن بن أحمد بن يعقوب، يكنى بابن يعقوب، ويعرف بالنسابة، وبابن الحائك، ويسمي نفسه بـ (لسان اليمن)، ويكني نفسه بأبي محمد، وهو من أسرة اتخذت بلاد همدان في اليمن مقرا لها، وقد تحدث عنها في الجزء العاشر من كتابه (الإكليل) حديثا مستفيضًا، عندما تطرق في حديثه عن همدان وأنسابها، وعيون أخبارها، وأن والده كان تاجرًا ذهبَ في تجارة له إلى حواضر الشام والعراق ومصر(١).

أما مؤرخنا الحسن ـ الملقب بالهمداني ـ فقد ولد في شهر صفر سنة (٢٨٠هـ/ ٨٩٣م) في بلاد همدان باليمن، ولكن المصادر المعاصرة لم تذكر شيئا عن طفولته، وما إن أصبح شابا حتى عمل مع أبيه وأقاربه في مهنة الجمالة التي كانت قائمة آنذاك على نقل الحجاج والتجار من حواضر اليمن إلى الطائف ومكة المكرمة في الحجاز، وقد أشار الهمداني إلى ذلك بقوله: (وكنت أنظر إلى التجار إذا حملناهم إلى مكة من صعدة)(٢). وسنحت له الفرصة، أثناء تنقله بين مدن اليمن والحجاز أن يلتقي برجال الفكر من العلماء والمشائخ، وخاصة في مكة المكرمة، فدرس على أيديهم، وتعلم منهم الشيء الكثير، فتوسعت مداركه، ونضجت معارفه، وازدادت خبرته في الحياة لكثرة ما شاهد ورأى مما زاده معرفة في النفوس بمختلف أصنافها ومستويات علمها، وطرائق عيشها، الأمر الذي أهله لأن يكون علما من أعلام الفكر والمعرفة في زمنه، فألف العديد

من المؤلفات في الأنساب، والتاريخ، والجغرافيا، والآثار، وغيرها من العلوم الأخرى، وذاع صيته بين الناس، وأصبح معروفا عند العلماء بفصاحة لسانه وقوة قلمه، وقد أثنى عليه بعض العلماء فقالوا: «إنه لم يولد مثله في اليمن، علما وفهما، ولسانا وشعرا، ورواية وذكرا، وإحاطة بعلوم العرب من النحو واللغة والغريب منها والشعر»(٣). ويبدو من هذا الوصف تنوع ثقافته التي تمتع بها دون سواه، والدليل على ذلك كثرة مؤلفاته في مختلف ضروب العلم والمعرفة.

وإذا استقرأنا ذكر مؤلفات الهمداني نجدها كثيرة، ولكن للأسف لم نعثر إلاَّ على القليل منها، مما اتسم بذكر الأحداث التاريخية والأنساب والأخبار عن بلاد اليمن، وكتابه (الإكليل) الذي يقع في عشرة أجزاء يتصف بهذه الصفات، ومما وصلنا من هذا المصدر أربعة أجزاء: **الأول**، ويتحدث عن أصول العرب والعجم وأنسابهم، وخاصة نسب حمير. والجزء الثاني، ويتحدث عن ولد الهميسع بن حمير، وقد طبع الجزءان لأول مرة في القاهرة عام (١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م). أما الجزء الثامن، فيتحدث عن محافد اليمن ومساندها ودفائنها وقصورها، ومراثي حمير والقبور، وقد طبع لأول مرة في بغداد عام (١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م). والجزء العاشر، يتضمن أخبار همدان وأنسابها ومعارفها، وطبع لأول مرة بالمطبعة السلفية بالقاهرة عام (١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م).

أما كتاب الجوهرتين العتيقتين المائعتين من الصفراء والبيضاء فهذا يعد من أبرز كتبه لأهمية مضمونه؛ لأنه يتعلق بالمعدنين الذهب والفضة، من حيث طرق تعدينهما وصياغتهما، وضرب عيارهما، وكل ما يتصل بهما في جزيرة العرب، وبخاصة في بلاد اليمن. وقد ترجم إلى الألمانية، ثم نشر باللغتين العربية والألمانية من قبل الأستاذ كريستوفرتل (christophertoll) بمدينة أبسالا

في السويد سنة (١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م).

أما كتابه (صفة جزيرة العرب) الذي وصلنا جزء منه فهو ـ (كما أشرنا آنفًا) الركيزة الأساسية في بحثنا، ويحتمل أن يكون من خاتمة مؤلفات الهمداني؛ لأنه يشير فيه إلى كتابه (الإكليل)، ويتضمن هذا الكتاب معلومات قيمة عن شبه الجزيرة العربية، وبلاد اليمن خاصة، وقد امتازت معلوماته بدقة الوصف إلى جانب الشمولية والتعليل، والذي يهمنا من هذا المؤلف، ما كتب عن المناطق المرتفعة والواقعة جنوب الطائف والممتدة جنوبا صوب نجران، والتي أطلقنا عليها اسم «بلاد السراة من خلال كتاب صفة جزيرة العرب لهمداني». (انظر: الخريطة المرفقة مع البحث). وقد استعنا بمؤلفات الهمداني الأخرى التي ورد فيها معلومات ذات بال تعزز بحثنا. ونظرا لأهمية كتاب «صفة جزيرة العرب» فقد طبع عدة مرات، وأول طبعة له كانت في هولندة، عام (١٣٠٢هـ/ ١٨٨٤م)، ثم تلت تلك الطبعة طبعات أخرى، كان أفضلها الطبعة التي حققها محمد بن علي الأكوع الحوالي، والتي أشرف على إخراجها حمد الجاسر عام (١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م)، ولكونها امتازت بالصفات التي ذكرت عنها مقارنة بغيرها من الطبعات الأخرى، كانت الأساسية عندنا في بحثنا.

جغرافية السراة الطبيعية والبشرية:

السراة: لغة، أعلا الشيء، والسراة عند العرب تعني ـ أيضا ـ الجبال المتقاودة الآخذ بعضها برقاب بعض ليس بينها فاصل تام. والسراة هنا: هي السلسلة الجبلية الواقعة غرب بلاد العرب، والممتدة من اليمن جنوبا إلى الحجاز ثم الشام شمالا، وتخترق هذه السلسلة أودية وشعاب كثيرة يشرق

بعضها، وبعضها يغرب، وهي ليست في مستوى واحد من حيث الاستواء، فمنها الشامخ في العلو، ومنها المنخفض، ومنها المتوسط في الارتفاع. وقد أطلق بعض الجغرافيين القدامى على هذه السلسلة اسم الحجاز؛ لأنها حجزت بين الأغوار التهامية الممتدة بمحاذاة البحر الأحمر غربا، والهضاب الشرقية الممتدة صوب نجد شرقا[٤]. ويطلق على هذه السلسلة اسم (الطود) ونخص بهذه التسمية الجزء الجنوبي من جبال السراة الذي يبتدئ بالطائف شمالا وينتهي بنجران ثم صعدة وصنعاء جنوبا، ويسمى الجزء الجنوبي الشرقي من هذه الجبال بـ (الجبل الأسود)، ربما لأن صخوره بركانية سوداء، كما يسمى بالسراة، أو السروات، وكل قسم فيه ينسب إلى القبيلة التي تسكنه، وقد يدعى سراة دون أل التعريف. أما القسم الشمالي من السلسلة الممتدة من شمال مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، وما يأتي بعدها فيسمى بحجاز المدينة أو السراة[٥].

وطول جبال السراة وعرضها وأقسامها مثار خلاف عند المتقدمين من الجغرافيين والمؤرخين، وفي الغالب أنها تشمل الجبال الممتدة من الطائف شمالا إلى اليمن جنوبا، لكن الجبال الممتدة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة ثم بلاد الشام، والمسماة هي الأخرى بالسراة، ليست مجال حديثنا لأنها لا تدخل ضمن بحثنا، لكنها بدون شك تختلف عن الأجزاء التي نحن بصددها من حيث الارتفاع، والاتساع والسمات التضاريسية والمناخية، لكنها تماثلها في التكوين الجيولوجي، وتمتاز الجبال الممتدة من الطائف إلى نجران ثم صنعاء وصعدة في اليمن بأنها متقاربة من بعضها متشابهة بمناخها.

ويعد الحسن بن أحمد الهمداني الشخصية المعرفية في أرض السراة وسكانها، لكثرة تنقله في أرجائها، وله رأي في تسميتها، حيث يقول: «السراة هو ما

استوسق واستطال في الأراضي من جبال هذه الجزيرة»(٦). لكنه لم يحددها، وعند حديثه عن أطرافها الجنوبية الممتدة إلى داخل اليمن ينسب الأرض إلى القبيلة، كسراة الكلاع، والمعافر، وخولان، وغيرها(٧). وفي حديثه عن السروات أثناء رحلته جنوبا نحو الشمال عند وصوله إلى نجران وما بعدها شمالا أشار إلى سراة جنب، ثم تابع حديثه قائلا: «ثم يتلوها سراة عنز، وسراة الحجر نجدها خثعم، وغورها بارق، ثم سراة ناه من الأزد، وبنو القرن وبنو خالد نجدهم خثعم، وغورهم قبائل من الأزد، ثم سراة الخال لشكر نجدهم خثعم وغورهم قبائل من الأسد بن عمران، ثم سراة زهران من الأزد، دوس، وغامد، والحر، نجدهم بنو سواة بن عامر وغورهم لهب، وعويل من الأزد، وبنو عمرو، وبنو سواءة خليطي والدعوة عامرية، ثم سراة بجيلة فنجدها بنو المعترف، وأصلهم من تميم، وقال لي بعضهم - والقول للهمداني -: إنهم من عكل، وغورها بنو سعد من كنانة، ثم سراة بني شبابة وعدوان، وغورهم الليث ومركوب فيلملم، ونجدها فيه عدوان مما يصلي مطار ثم سراة الطائف غورها مكة ونجدها ديار هوازن(٨).

وبعد هذا الوصف الذي أورده الهمداني عن بعض بلاد السراة، والقبائل التي تقطن فيها أشار أيضا إلى بعض فروع تلك القبائل ومواطنها، إما في الأغوار التهامية، أو الأجزاء الشرقية النجدية، ولكنه في مكان آخر من كتابه (صفة جزيرة العرب)(٩) وضع عنوانا جانبيا سماه (أرض السراة) قال فيه: «ثم يتلو معدن البرام ومطار صاعدا إلى اليمن، سراة بني علي وفهم، ثم سراة بجيلة، والأزد من سلامان بن مفرج، ألمع، وبارق، ودوس، وغامد، والحجر إلى جرش، ثم قال: «وبطون الأزد مما تتلو عنز إلى مكة منحدر الحجر، وباطنها في التهمة ألمع ويرفى ابنا عثمان في أعالي حلي وعشم، وذلك قفر

الحجر، وتنومة والأشجان، ونحيان ثم الجهوة وهي قرى لبني ربيعة بن الحجر، وعاشرة العرق، وأيد وحضر ووراؤه قرى لبني ربيعة من أقصى الحجر أيضا. وحلبا قرية لبني مالك بن شهر قبلة الحجر على هذا يمانيها مصال لعنز ومن شآميها بلد الوس والفزع من خثعم، وشرقيها ما جاور بيشة من بلد خثعم وأكلب وغوريها بلد بارق»(١٠).

وفي مكان آخر تحدث عن هجرة الأزد من بلاد اليمن بعد انهدام سد مأرب، فقال: «وأما من سكن السروات، فالحجر بن لهنو، ولهب، وناه، وغامد، ومن دوس وشكر وبارق السوداء وحاء، وعلي بن عثمان، والنمر، وحوالة، وثمالة، وسلامان، والبقوم، وشمران، وعمرو»(١١).

وفي أماكن أخرى يشير إلى بعض المواطن التي وجدت بها تجمعات سكانية ونهضة حضارية في عصره، أمثال جرش(١٢)، فيقول عنها: «هي كورة نجد العليا، وهي من ديار عنز ويسكنها ويترأس فيها العواسج(١٣) من أشراف حمير، وهم من ولد يريم ذي مقار القيل، ولهم سؤدد. . . وفي شق قرية جرش فرق من النزارية يدعون الجزارين من موالي قريش»(١٤). ثم يواصل الهمداني حديثه عن موقع جرش وما جاورها من البلاد فيقول: «فجرش رأس وادي بيشة، ويصالي قصبة جرش أوطان حزيمة من عنز ثم يواطن حزيمة من شاميها عسير قبائل من عنز، وعسير يمانية تنزرت، ودخلت في عنز فأوطان عسير إلى رأس تية، وهي عقبة من أشراف تهامة، وهي أبها. . . »(١٥).

ثم يفصّل الحديث في ذكر مناطق مختلفة في منطقة جرش، التي هي جزء من سراة عنز، ثم يقول: « ويأتي بعد سراة عنز سراة الحجر بن الهنو بن الأزد، ومدنها الجهوة، ومنها تنومة، والشرع من باجان، ثم يتلوها سراة غامد، ثم سراة دوس، ثم سراة فهم وعدوان، ثم سراة الطائف»(١٦). ولكنه في مكان

آخر يفصّل حـديثه نوعا مـا عن سراة الحجر بن الهنو، فيقول في مطلع حـديثه: «فأول بـلاد الحجر من يمانيهـا عبل واد فيـه الحبل ساكنـه بنـو مالك بن شهـر، وباحـان به القرى والزرع، وسـاكنه بنو مـالك وبنو ثعلبة، وبنو نـازلة من بني مالك بن شهـر بن الحجر، وذبوب واد لبني الأسمـر من شهر، ثم الرهـوة رهوة بني قـاعـد من العـدميين مـن بـلاد شهـر قـريـة شعفيـة على رأس من السراة..»(١٧). ويواصل الهمداني حديثه عن بقيـة سراة الحجر، وأحيانا يذكر بعض الأجزاء التهاميـة والنجـدية لتلـك السراة، مع الإشارة إلى شيـوخ بعض القبـائل فيها، ومثـال ذلك يـذكـر بلـدة نحيان التي هي جـزء من أجـزاء سراة الحجـر ثم يورد اسمي علي بن الحصين العبـدي من بني عبـد ابن عامـر، وابن عمه الحصين بن دحيم، ويشير إلى أنهما الحكام على نحيان، ويذكر أيضا مدينة الجهـوة وزنـانـة العـرق في السراة نفسهـا، ثم يقـول: «وهي لجابـر بن الضحاك»(١٨).

من هذا الوصف الموجز الذي أورده لنا الهمداني عن بلاد السراة يمكننا القول بأنه تـرك لنا معلومـات قيمة عن تلك البلاد، بحيث لا نستطيع أن نجـدها في أي مصـدر آخـر، ولكن قبل الخوض في تحليـل مـا ذكـره عن الأرض والسكـان لبـلاد السراة يجدر بنا أن نـورد نبذة مختصرة عن التركيبـة الطبيعية والبشريـة لهذه البلاد في عصرنـا الحاضر، وذلك ليسهل الربط بين المواقـع الحالية، وبين المواقع التي مـازالت تحمـل الأسماء التي كـانت أيـام الهمـداني، والمواقـع التي حـرفت أسماؤها وتغيرت عما كـانت عليه في أيامه. ونقطـة البدء في هذه النبـذة تبدأ من الطائف في الشمال إلى نجران في الجنوب.

وأول جـزء من سراة الطائف الهداة الـواقعة غـرب الطائف، وهي عبـارة عن جبل ضخم يسكنها قبائل من ثقيف، ومعهم جماعـة من هذيل، ولذا يليها من

السروات الواقعة بين الطائف ونجران

الجنـوب شفا هـذيل، ثم يليهـا شفـا بني سفيـان، وهم بطن من ثقيف، ويلي ذلك من الجنوب سراة بني سعـد، ثم سراة بلحارث، وجميع السروات والأشفية تسمى بسراة الطـائف، وربما أطلق على الأجـزاء المحـاذيـة للقسم الجنـوبي من الطائف سراة فهم، وعـدوان، وقد تعـرف بسراة بني شبابـة وعدوان، وغـورها الليث ويلملم، ونجـدهـا وهي الأراضي الواقعـة شرق أوديـة الطائف وجنـوبها التي أشار إليها الهمداني بـاسم يصلي مطار. سراة بني مالك، وهذه السراة التي كانت تعرف بسراة بجيلـة على بعد مائة كيلو متر جنـوب الطائف، وتجري المياه المنحدرة من شرقها صـوب تربة، والمياه المنحدرة من غـربها صوب الليث، وقد سماهـا أحد الشعـراء بسراة بني جريـر، نسبـة إلى الصحابي جـرير بن عبـد الله البجلي(١٩)، الذي هجا خالد بن عبد الله القسري، فقال:

تمني الفخـــر في قيس وقسر... كأنـك من سراة بنـي جـــريــــر(٢٠)

أمـا سراة غامـد وزهران، فتبـدأ من أول حدود بني مـالك وبلحارث، وتبـدأ صعوداً في جبل شمـرخ الممتد جنـوبا إلى بلـد خثعم وشمران، وتصب ميـاهها الشرقية، شمالها في تربة، وشرقها في رنية، أمـا مياهها الغربية فتصب من الشمال إلى الجنـوب في وادي عليب، ووادي دوقـة ووادي الأحسبة، وكلهـا في الأغـوار التهامية، والباحة قـاعدة سراة غامد وزهران(٢١). وتقع سراة خثعم وشمران إلى الجنـوب من سراة غامـد وزهران، والممتـدة نحو الشرق والجنـوب الشرقي حتى السهل، ومياههـا الشرقية تصب في بيشة، والغـربية في وادي قنونـا الذي يصب في سهول القنفذة مـن الشرق، أما سراة بلقرن الواقعة مـا بين سراة خثعم وشمران في الشمال، وبلاد الحجر في الجنـوب، فتصب مياهها الغربيـة في مناطق القنفذة وما حولها، والشرقية في بيشة، وقاعدة هذه السراة سبت العلاية.

وتمتاز سراة بـلاد الحجر بطولها وعـرضها، فهي تمتد من بـلاد بلقرن شمالا إلى

المناطق القريبة من مدينة أبها جنوبا، وتتكون من أربع قبائل هي: بنو عمرو، وبنو شهر، وبللسمر، وبللحمر، ومعظم قرى هذه القبائل تقع في الأجزاء السروية، في حين أن هناك أفخاذا وقرى في تهامة والبوادي تتبع بلاد السراة، ومن أكثر المراكز فيها، النماص، وتنومة ببلاد بني شهر، وسوق الاثنين ببللسمر، وصبح ببللحمر، وتصب مياه الحجر الغربية في واديين كبيرين هما (يبه) و(حلي) وكلها تصب جنوب القنفذة، أما في شرقها فلا يزال وادي بيشة يبتلع كل أودية السروات، وأهم روافد بيشة ببلاد الحجر وادي ترج، ووادي عياء، ووادي صلحلح[٢٢].

أما سراة عسير (عنز) فتحيط بمدينة أبها، وتشتمل على أشهر القبائل العسيرية، وهي: علكم، وبنو مغيد، وربيعة ورفيدة، وبنو مالك. وكل هذه القبائل تقطن في الأجزاء الجبلية من عسير، ويتبعها قبائل رجال ألمع في تهامة، وقد يدخل في هذه التبعية، من حيث الموطن الجغرافي، بعض قرى وأفخاذ وعشائر من قبائل شهران، ولا سيما القريبة منها بمدينتي أبها وخميس مشيط[٢٣]، وتصب مياه عسير الشرقية في وادي بيشة، وتصل بين بيشة وسراة عسير بعض الروافد من أشهرها وادي ذهبان الذي أطلق عليه فيما بعد اسم وادي ابن هشبل، أما مياه السراة الغربية فتصب في مناطق البرك، والقحمة، والشقيق في تهامة، وأهم الأودية وادي محايل الذي يصب في حلي، ووادي ريم وعرمرم اللذان يصبان في مناطق الشقيق، أما وادي عتود فيصب في المناطق الواقعة إلى الجنوب من البرك، والقحمة والشقيق.

أما سراة قحطان التي تندمج مع بعض عشائر شهران في بعض المواطن، والمسماة قديما بـ (سراة جنب، والواقعة إلى الجنوب الشرقي من سراة عسير «عنز»)، فتبدأ هذه السراة بالمناطق الواقعة من الشمال والشمال الشرقي من سراة

عسير إلى ديـار نجران ومـا حـولها في الجنوب. وغـالبيـة سكان هـذه السراة من قبائل قحطان، كـوداعة، وسنحان، وبني بشر، وعبيـدة، ورفيدة، والجارمة، وخطاب وقبائل أخـرى. وهذه السراة عبارة عن طود عظيم يقـع ما بين السهول الممتدة شرقـا إلى التهائم غربـا، ومياههـا تتجه إلى ثلاث اتجاهـات: شمالا نحو بيشة، وغربا نحو بيش، وأهل بيشة في الشمال، وأهل بيش في الغرب يتقاسمان الماء الآتي من السراة الواقعـة ما بين أبها ونجران، أما الميـاه الشرقية للسراة نفسها فتصب في واديي حبونن واليدمة نحو بلاد يام.

وسبق لنـا أن أشرنـا إلى رحلـة الهمـداني الـذي انطلق من سراة جنب (بـلاد قحطان) متجها من الجنوب نحو الشمال، وأثنـاء رحلته ذكر سراة عنز، وبعض المواطن والمراكـز التي كانت بها، ثم سراة الحجـر، وسراة بلقرن وغـامد وزهـران حتى وصل بذكره إلى بجيلة وعدوان والطائف، ويستفاد مما ذكره أن هناك أسماء للسروات مازالت إلى يومنـا هذا حية في الأذهان متداولـة على اللسان، وبعضها اندثـر، مثل ناه، وأحيانـا تلفظ باه، والخال لشكر، وأحيـانا أخرى يـذكر أسماء أمـاكن في البـوادي أو الأغـوار، فيشير إلى أن سكـانها من قبـائل بـلاد الأزد السرويـة، لكنه لا يـذكـر لأي الأفخاذ أو العشـائر ينتمـون، ولا ندري مـا سرّ اختفـاء هـذه الأسماء، وما هـي العوامل التي أدت إلى اختفـائهـا. ومن سيـاق حـديث الهمـداني عن ناة أو بـاة، والخال لشكـر، وأيضا بنـي خالـد، تبين أن مواطنهم ربما كـانت ببلاد سراة الحجر أو سراة بلقـرن، أو ضمن بعض الأجزاء الخثعمية، شرق سراتي بلاد الحجر وبلقرن والدليل على هذا القول، أن الهمداني نفسـه، يذكـر سراة الحجـر في أثناء ذهـابـه من الجنـوب إلى الشمال، ثم يذكـر السروات التـالية لبـلاد الحجر نحـو الشمال، قائلا: «.. وسراة نـاة من الأزد، وبنو القـرن، وبنو خـالد، نجـدهم خثعم وغورهم قبـائل من الأزد، ثم سراة

الخال لشكر نجدهم خثعم وغورهم قبائل من الأسد ابن عمران[٢٤]، وبهذا الوصف يذكر سراة الحجر من الجنوب، وخثعم من الشرق، وبنو القرن (الذين يطلق عليهم في وقتنا الحالي بلقرن) في الوسط، وربما إلى الشمال مع بعض عشائر خثعم، ثم يلي ذلك بقية السروات السابقة الذكر، كغامد، وزهران، وبجيلة وغيرها[٢٥]. وبهذا العرض الجغرافي يتضح أن ناة، وبنو خالد، والخال لشكر، كانت ربما مجاورة لبلاد الحجر من الشمال، ومن المحتمل أن تكون مشاركة لها في بعض المواطن الشمالية، أما بلاد بلقرن فمن المؤكد أنها مجاورة لهم، بل ومشاركة لهم في كثير من المواطن، لأننا نجد الهمداني في الوصف السابق يذكر ناة ثم بني القرن (بلقرن)، ثم بني خالد، والخال لشكر، ثم غامد وزهران حتى يصل بلاد الطائف[٢٦]. وسر اختفاء ناة والخال لشكر وبني خالد، ربما أنهم اندمجوا مع قبائل السراة المجاورة، كسراة بلقرن، أو بلاد الحجر، أو خثعم، فصاروا جزءا منهم. وكما هو معروف أن القبائل الصغيرة تدخل تحت حماية القبائل الكبيرة، إمّا بالغلبة، أو الاستجارة، أو الارتباط بالأحلاف، ومع مرور الزمن تنسى القبائل الصغيرة أسماءها، ويذوب كيانها في كيان القبائل الكبرى فتسمى بأسمائها[٢٧].

وأورد الهمداني ذكر السروات في أكثر من مكان في كتابه (صفة جزيرة العرب) فذكرهم وهو ذاهب من الجنوب إلى الشمال، وذكرهم وهو ذاهب من الشمال إلى الجنوب، مع إيراد بعض الاختلاف لأسماء بعض السروات في كل مرة يذهب ويعود من عليها، فعلى سبيل المثال، سراة شبابة وعدوان الواقعة إلى جنوب الطائف ذكرها بهذا الاسم، ثم يعود مرة ثانية فيسميها سراة بني علي وفهم، وكلا الاسمين صحيح، لأن تلك الأجزاء تعرف باسمي سراة بني علي وفهم، وسراة شبابة وعدوان[٢٨]. أمّا بعض المواطن والقبائل في السروات،

فلم يذكرها إلا مرة واحدة. فمثلا؛ يقول: البقوم، وشمران، وعمرو، وكل هذه الأسماء تطلق على عشائر أو قبائل تشكل بموطنها جزءا من بلاد السراة، فشمران، مثلا، جزء من سراة خثعم وشمران، وعمرو جزء من سراة الحجر. وقد يتراءى للبعض أن الهمداني قد وقع في خطأ، ولكن الواقع كان يذكر أحيانا اسم السراة للتعميم، وأحيانا أخرى يشير إلى جزء منها ويسميه باسم القبيلة القاطنة فيه، ويتبين لنا من الوصف الجغرافي لبلاد السراة عند الهمداني، الذي يعد وصفه أفضل وصف وصل إلينا في القرون الإسلامية الأولى، أن معظم الأماكن السروية مسماة بأسماء القبائل والعشائر القاطنة فيها، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على الترابط الاجتماعي بين هؤلاء السكان، الأمر الذي أكسبها قوة في بنيتها الاجتماعية تماثلت مع بنية التكوين لهذه لجبال، وقد أدى هذا التماسك إلى التكافل الاجتماعي، وإلى تعمق المفهوم القبلي، رغم وجود الأنظمة منذ بزوغ فجر الإسلام إلى الوقت الحاضر، الأمر الذي أدى إلى حدوث اتحاد بين النظام القبلي ونظام السلطة العليا الممثلة في الدولة التي ضمنت الاستقرار والأمن للجميع بالتعاون معهم إدراكا منهم لأهمية السلطة العليا وفائدتها.

ولم يقتصر الهمداني في كتابه على وصف الأماكن وتسميتها بأسمائها الجغرافية، أو بأسماء القبائل أو العشائر القاطنة فيها، وإنما يذهب إلى أبعد من ذلك، حيث يذكر مواقع هذه القبائل أو العشائر في بعض المواطن من بوادٍ ونجود وسهول وأغوار، متتبعا أفخاذ هذه العشائر أو القبائل في الأماكن التي استقرت فيها، فعلى سبيل المثال لا الحصر، يذكر بعض الحواضر والأرياف في أجزاء من السروات، كتنومة، ونحيان، والجهوة، وعاشرة، والعرق، وأيد، وحضر، وباحان، وبني ثعلبة، وبني نازلة، وجميع هذه المواطن في بلاد سراة

الحجر(٢٩)، والطريف في الأمر أن أغلبها إن لم يكن جميعها مازال يحمل الاسم نفسه الذي كان يسمى به في عهد الهمداني، ولا تزال أسماء هذه الأماكن متداولة على الألسن إلى يومنا هذا(٣٠).

وأفرد الهمداني عنوانا خاصا لمدينة جرش وضواحيها(٣١)، فأشار إلى موقعها، ومن سكن فيها من القبائل والعشائر، وعقد مقارنة بينها وبين بلاد الحجر، باعتبار الأولى جزءا من سراة عنز، وربما عدت أيضا من شمال سراة جنب، أما بلاد الحجر فهي سراة تقع بين سراة عنز (عسير) جنوبا، وسراة بلقرن شمالا(٣٢).

والواقع أن جرش لها سجل في التاريخ لا عند الهمداني فحسب، بل في كتب السير وغيرها، فقد ورد اسمها عندما قدم وفدها بزعامة صرد بن عبد الله الأزدي على الرسول (ﷺ) في السنة العاشرة للهجرة(٣٣)، وذكرها اليعقوبي فقال: «وكورة بلاد اليمن تسمى مخاليف، وهي أربعة وثمانون» ثم ذكر منها مخلاف جرش(٣٤)، وذكرها بعض الجغرافيين والرحالة المسلمين الأوائل كابن خرذابة، والمقدسي، وابن حوقل، والإصطخري، والإمام أبي إسحاق الحربي، وابن المجاور، وغيرهم، فبيّنوا أهميتها الحضارية ونشاطها التجاري خلال القرون الإسلامية المبكرة(٣٥). وبهذا فجرش في القرون الإسلامية الأولى، ربما كانت أعظم مدينة حضارية، لأنها كانت تشمل منطقة كبيرة تحوي أغلب منطقة قبائل عسير، وجزءا من منطقة قبائل قحطان وشهران، وليس ببعيد أنها كانت مركزا حضاريا مرموقا ليس في سراة عنز وجزء من سراة جنب، بل في بلاد السروات بشكل عام، ولا يستبعد أنها كانت تأتي في المنزلة الثانية بعد مدن اليمن والحجاز الكبرى. وتعود أهمية جرش إلى نموها الحضاري لقربها من المراكز الحضارية الكبرى في اليمن، كصعدة، وصنعاء وغيرهما. إلى جانب

قربها من الطريق التجاري الذي يصل مدن الحجاز بمدن اليمن، والواقع إلى الشرق من هذه المدينة. ولم يعد اسم جرش يستخدم إلى اليوم، وإنما اختفى تقريبا من بعد القرن الخامس أو السادس الهجري، فلا نجد الجغرافيين المتأخرين يذكرونه، علما أن موقع المدينة الأساسي يقع ـ حاليا ـ إلى الجنوب من خميس مشيط بحوالي خمسة عشر كيلو مترا، على الطريق المؤدي إلى مدينة نجران(٣٦).

الحياة الاجتماعية:

أما الحياة الاجتماعية في بلاد السراة كما يخبرنا عنها الهمداني فقد بين في كتابه (صفة جزيرة العرب) أن التركيبة السكانية في هذه البلاد تقوم على القبيلة، مشيرا إلى مواطن القبائل وفروعها في هذه البلاد، فمثلا، قبائل الأزد بمختلف فروعها استوطنت البلاد الواقعة ما بين نجران وجازان إلى الطائف وتهائم مكة في الشمال، وقد اختلط مع هذه القبائل قبائل عدنانية، والاختلاط بين القبائل العدنانية والقحطانية في بلاد السراة قائم منذ أمد(٣٧). الأمر الذي أدّى إلى اندماج العشائر النزارية مع القبائل الأزدية، باعتبار الأولى أقلّ عددا من القبائل الأزدية القحطانية، فاندمجت بها أحيانا تحت ظروف القهر والغلبة، أو الجوار والمصاهرة. ويفهم من حديث الهمداني عندما قال: «... ثم سراة زهران من الأزد، ودوس، وغامد، والحر، نجدها بنو سواءة بن عامر، وغورها لهب، وعويل من الأزد وبنو عامر، وبنو سواءة خليطي والدعوة عامرية...»(٣٨) بأن الاختلاط والاندماج كان قائما، ولكن ربما بنسب، فبنو سواءة خليط من أفخاذ وعشائر سواء كانت قحطانية أو عدنانية، وأحيانا

يكون خليط مجموعة من العشائر مندرجا تحت مظلة واحدة أو اسم قبيلة أو عشيرة معينة.

وفي حديث الهمداني عن السراة، لم يذكر وجود طبقة معينة من العبيد بها، ولكن لا نستبعد أن يكون قد وجد بها نسبة منهم، لأجل وقوعها في الوسط بين حواضر الحجاز واليمن الكبرى، التي اشتهرت بنشاط أسواقها في بيع العبيد وشرائهم، وغيرهم من السلع المختلفة، إلى جانب أن أغوار بلاد السراة تطل على البحر الأحمر الذي يوجد به عدد من الموانى التي كان لها صلات جيدة مع مصر والحبشة والسودان والصومال وغيرها من بلاد العالم(٣٩). أما طبقة الموالي في بلاد السراة فقد ذكرها الهمداني صراحة عند حديثه عن جرش فقال «وفي شق قرية جرش فرق من النزارية يدعون الجزارين من موالي قريش(٤٠)، ولعلها نالت هذا التخصيص بسبب كثرتها، الأمر الذي أدى فرض وجودها، مع العلم أن النص الذي أورده الهمداني لا يوضح إلى من ينتسب إليه أولئك الموالي من قبيلة قريش، وكيفية الولاء الذي كان بينهم وبين قريش(٤١)، ولكن الأهم من ذلك أنّه ربط مهنة الجزارة بالموالي دون سواهم، لأن القبائل العربية تأنف أن تتخذ مثل هذه المهن وأشباهها، وفي هذا يقول ابن خلدون في فصل خاص بمقدمته (العرب أبعد الناس عن الصنائع)(٤٢)، والملاحظ أن المهن إلى اليوم لها انعكاسات على أصحابها في المجتمعات العربية.

وأثناء حديث الهمداني عن مواطن السكان ومجاورتهم لبعضهم البعض، لم يكن يذكر معلومات عن نوعية مساكنهم ومرافقها، ولم يوضح مما كانت تبني بيوتهم، وكيف تصمم، ونوع الأثاث الذي كان يوضع بها، مع العلم أنه ذكر بعض التفصيلات عن بناء البيوت ومرافقها في حواضر اليمن الكبرى، فأشار إلى سعة بعض الدور عند الأغنياء خاصة في صنعاء وغيرها من المدن الكبرى،

واستخدام الحجارة في البناء على هيئة طابق وطابقين ونادرا ما تكون أكثر من ذلك، وغيرها من المعلومات الجيدة حول البناء وما يتعلق به(٤٣). ونظرا للمجاورة بين بلاد السراة وحواضر اليمن فليس ببعيد أن يكون شكل بعض الأبنية والمواد المستخدمة في بنائها مثلما هو الحال في صنعاء وغيرها.

والطريف في وصف الهمداني أنه لم ينس ذكر بعض الأماكن التي وجد بها بعض المراكز الحضارية، فيذكر منطقة جرش قائلا: «ويسكنها بنو عبد الله بن عامر من عنز، ثم تندحة، وهي العين من أودية جرش، وفيها أعناب وآبار وساكنه بنو أسامة من الأزد، ورأيت بعضهم ينجذب إلى شهران العريضة، والعيبا بلد مزارع لبني أبي عاصم من عنز، ويليها وادي طلعان كثير المزارع لبني أسد من عنز، والقرعا لشيبة من عنز ولهم قرية كبيرة ذات مسجد جامع يقال لها المسقى، وهم مسالمون للعواسج»(٤٤).

وهذا العرض من الهمداني لبعض أجزاء بلاد جرش نجده يذكر أسماء أماكن عديدة، تغير أسماء بعضها، وبقي أسماء البعض الآخر إلى يومنا هذا، وكلما ورد ذكره يغطي أجزاء من المناطق المعروفة حاليا بخميس مشيط، وأحد رفيدة، ومنتزه القرعا والجرة وما حولها. وكونه ينوه لذكر شيبة من عنز في أرض القرعا، ويبين أن لهم قرية كبيرة ذات مسجد جامع، فهذا يدل على دقة ملاحظته، فلم يكن يغفل عن حجم القرية التي كانت كبيرة، وبها مسجد جامع للمصلين(٤٥). ولم يكن أيضا يغفل عن ذكر بعض المراكز الحضارية، وتجمعات المواطن السكنية بها، فيورد أسماء بعض القرى المهمة في جرش، كتندحة، وغيرها، ثم يذهب إلى سراة بلاد الحجر فيذكر بها تنومة، ثم يقول: «وهي واد فيه ستون قرية أسفله لبني يسار، وأعلاه لبلحارث بن شهر»(٤٦). ثم يشير إلى مدينة الجهوة التي تأتي في المرتبة الأولى قبل جرش، ويواصل تدوين

ملاحظاته الجيدة عن بعض القرى في سراة خثعم ، وبلقرن ، وشمران ، وغامد ، وزهران ، وبجيلة حتى مدينة الطائف . والملاحظ أن الأماكن التي أشار إليها الهمداني لم تبق على ما كانت عليه ، بل تغيرت في تقسيماتها ، وأحيانا في أسمائها ، فعلى سبيل المثال كانت منطقة الجهوة في زمنه تأتي في المرتبة الأولى قبل جرش ، وهي من أرض بني شهر لسراة الحجر ، لكنها في الوقت الحاضر أصبحت جزءا صغيرا من قرية بني بكر التابعة لمنطقة النماص .

وعلى الرغم من أهمية معلومات الهمداني ، فإنه لم يذكر الألبسة المستخدمة لدى أهل السراة ، والمواد وكيفية تصنيعها ، كما أنه لم يشر إلى أدوات الزينة والطيب عند أهل هذه المنطقة ، لا سيما وأنها تقع على مفترق الطرق التجارية الكبرى التي تربط حواضر اليمن والحجاز ، وبالتالي كانت هذه الحواضر مركز جلب الألبسة والمنسوجات بأنواعها ، سواء كان من الجزيرة العربية أو خارجها(٤٧) .

أما الموائد والأطعمة التي لاحظها وذكرها ، فكان جلها من الثريد ، وهو عبارة عن خبز يفت ويبل بالمرق ، ويوضع فوق اللحم(٤٨) ، ولعله يشبه ما يسمى ببلاد الشام (بالفتة) والمضيرة ، وهي طبيخ اللحم باللبن حتى ينضج وتخثر المضيرة ، ثم تعد للأكل ، وموائد أخرى تتضمن الخبز ، والزبد ، واللبن ، والحليب ، واللحوم . وجميع هذه الأطعمة محلية لتوفر موادها في بلادهم ، فالقمح ، والذرة ، والشعير تزرع في السراة بكميات كبيرة . أما اللحوم والحليب فتؤخذ من مواشيهم الموجودة بكثرة حيث المراعي الشاسعة . وأشاد الهمداني بنوع من الأطعمة ، يسمى اللحوح ، وهو خبز رقيق يصنع من الذرة ، ويستخدم عادة مع اللبن ، وقد لاحظ رقته فوصفه بالقول : «إنه إذا وقع في اللبن استرخى فلا يحتمل إلا بأكثر الأصابع»(٤٩) .

وأشـار إلى أطعمة السفـر التي يتزود بها المسـافر من اليمن إلى الحجـاز، وربما تـزود بها أهل السراة، فقـال: «وكنـا نحن نستعمل في أسفـارنـا الخبـز والسمن واللحم والكشك والمهـاد[٥٠]. وكـان من أفضل المشروبـات عنـد أهل السراة شراب اللبن مع الزبدة، ومن أفضل المأكولات السمن الذي يستخرج من ألبان المواشي، حيث كانوا يستخدمونه مع الخبز والعصيد والهريس»[٥١]، وهذا النوع من الطعام مازال مرغوبا وخاصة عند المسنين من أهل تهامة والسراة.

وبـالنسبـة للعـادات والتقـاليـد عنـد أهل السراة كـالكـرم، والشجـاعـة، والتكافل، والتآزر سـواء في المواسم أو الأعياد أو غيرها من المناسبـات، فالواقع أن هذا المجتمع كـان ينبوعا وقـدوة لغيره من المجتمعات في التطبيق، ولكن مع الأسف لم يشر إليـه الهمـداني إلا بـاقتضاب شـديـد حينما يتحـدث عن النـواح بأرض السراة ومشابهته بنـواح اليمن، وتبيّن أن الذين يقومون بـه هم من النساء والعبيد الموالي[٥٢].

ومن الملاحظات المهمة للهمداني - يرحمه الله - اهتمامه بالجانب اللغوي عند أهل السراة، ومقارنتـه بالجوانب اللغوية الأخـرى عند أهل اليمن، والكثير من مناطق شبـه الجزيرة العـربية[٥٣]. وخلص إلى أن أهل السراة أكثر فصـاحة في القول، وسلامـة في اللغة حيث يقول: «الفصاحـة من العرض في وادعة فجنب فيام فزبيد، فبني الحارث مما اتصل ببلـد شاكر من نجران إلى أرض يام، فأرض سنحان، فأرض نهد وبني أسـامة فعنز، فخثعـم، فهلال، فعامـر بن ربيعة، فسراة الحجر، فـدوس، فغامد، فشكـر، ففهم، فثقيف، فبجيلة، فبني علي، غير أن أسافل سروات هذه القبائل مـا بين سروات خولان والطائف دون أعاليها في الفصاحة»[٥٤].

وطرأ على بلاد السراة ما طرأ على غيرها من مناطق شبه الجزيرة العربية بسبب سهولة المواصلات، وتيسر سبلها، الأمر الذي أدى إلى جعل العالم وكأنه بلد واحد، فحدث خلط جماعي بين سكانها، وبين الوافدين عليها من مختلف الأماكن، بل حدث أيضا الاختلاف في بعض المفردات واللهجات من عشيرة أو قبيلة إلى أخرى. والواقع أن التبدل والتعدد في اللهجات والمفردات ببلاد السراة له أهميته مثلما له طرافته، حبذا لو تصدى له بعض الباحثين اللغويين ليبينوا تاريخه، ودوافعه وأسبابه، فإنه موضوع مهم جدا في علم اللغويات، وبالتالي يتم إبراز وجه التراث العربي الأصيل.

الحياة الاقتصادية:

أما عن الحياة الاقتصادية في هذه البلاد التي حباها الله بعدة مزايا تؤهل ساكنيها لمزاولة العيش فيها، فهناك المراعي، والأراضي الزراعية الخاصة، وهناك الموقع الجغرافي المهم، كل هذا ساعد على امتهان الرعي ومزاولة الزراعة والتجارة إلى جانب ممارسة الحرف اليدوية على مختلف أنواعها. فالرعي عند أهل البادية من المهن الأساسية في الحياة، يشاركهم فيه - أحيانا - أهل الحضر، ونتيجة لكثرة المراعي وأهميتها في مقومات الحياة فقد ذكرها الهمداني في كتابه (صفة جزيرة العرب) فقال: «والصحن مراعٍ لبني شهر نجديها مما يصلي بيشه»(٥٥). ويبدو أن المناطق الشرقية من السراة تمتاز بكثرة مراعيها، مما جعلها منطقة رعي عندهم إلى زمن قريب، والأكثر من هذا أننا نجد حواضر تزاول الرعي إلى جانب الزراعة، وهذا مما يعبر عنه عند علماء الاجتماع بنهاية مرحلة الانتقال وبداية مرحلة الاستقرار الدائم، مع التنوع في أساليب العيش لتحسين الدخل.

ومن المواشي التي ورد ذكرها في كتاب الهمداني عن بلاد السراة، وبقيت إلى زمن قريب الماعز، والضأن، يليهما الإبل التي كانت تكثر في المراعي الشرقية للسراة لما يناسبها من اتساعها وتوفر أعشابها، إلى جانب الأبقار والمطايا من الحمير وغيرها في البلاد السروية عامة، وفي الأجزاء النجدية والتهامية معا. وذكر الهمداني أفخاذا وعشائر في مناطق متعددة من بلاد السراة، اقتصر عملهم على رعي الماشية، وجمع الحطب، وصيد الحيوانات البرية، ومعظمهم من سكان المناطق الشرقية للسراة(٥٦). ويبدو من كلامه أيضا أن الزراعة كانت لها الأولوية بين المهن، لكثرة المزارع والبساتين وما بها من خضر وفاكهة، ويعود ذلك لوفرة المياه في الآبار والأودية، ونزول الأمطار في معظم أيام السنة بسبب هبوب الرياح الموسمية على اليمن وعلى بلاد السراة بشكل عام، ومما ذكره الهمداني بهذا الخصوص قوله: «وبسراة الحجر البر، والشعير، والبلس، والعتر، واللوبيا، واللوز، والتفاح، والخوخ، والكمثرى، والإجاص والعسل. . . »(٥٧) ويذكر ثانية سراة الحجر: «. . . ثم نحيان واد مستقبل القبلة فيه التفاح واللوز والثمار. . . »(٥٨) ويذكر عدة أصناف من المحاصيل الزراعية التي اعتاد الفلاحون زراعتها، في بلاد جنب وعنز وغامد، وزهران، وبجيلة، وغيرها من المناطق الأخرى. وإن دلّ هذا على شيء، فإنما يدل على صلاحية المنطقة للزراعة، لما تحويه من وفرة المياه، وخصب التربة، لكن مع الأسف لم يذكر لنا الأساليب الزراعية المستخدمة في المنطقة، ولا كيفية بناء المدرجات الزراعية وحفر الآبار لاستخراج الماء من باطن الأرض، رغم وجودها منذ زمن بعيد(٥٩).

والملاحظ أن هذه المنطقة غنية بالأشجار والأعشاب البرية، ومن هذه الأشجار شجر الطرفاء، والأثل والسلم، والقرظ، والشبرم، والشوحط،

والتالب، والشث وغيرها(٦٠). ولم ينفرد الهمداني بذكر ما في السراة من أشجار برية متنوعة، بل سبقه في ذلك أبو حنيفة الدينوري(٦١)، ومن يطالع كتابه (النبات) يجد أنه لا يكتفي بذكر أسماء الأشجار، بل يشير إلى وصفها من حيث شكلها، والمناطق الملائمة لها، وأين تكثر وأين تقل، والأغراض المستخدمة من أجلها، سواء كان في التجارة أو الدباغة، أو الصياغة أو غيرها(٦٢).

أما الحرف والمهن اليدوية، فلم يكن الهمداني يهتم بذكرها، وهذا لا يعني أنه لم يكن هناك العديد من الحرف التي يتم مزاولتها لدى أهل البلاد، والسبب الذي يجعلنا نجزم بوجود بعض منها، هو أن المقومات الأساسية لبعض الحرف كانت متوفرة، وأشار الهمداني نفسه إلى بعضها، فمثلاً حرفة الدباغة كانت تحتاج إلى مناخ معتدل، وإلى جلود المواشي، وكذلك إلى بعض أوراق الأشجار المهمة في عملية الدباغة، وكل هذه الأشياء في متناول أيدي أهل السراة(٦٣)، وقس على مهنة الدباغة مهنا أخر، كالخرازة، والحدادة، والخياطة، والصياغة وغيرها من الحرف الكثيرة(٦٤).

ولم يغفل الهمداني عن ذكر الجانب التجاري في بلاد السراة أثناء تجواله في ديارها من الجنوب إلى الشمال بسبب امتهانه مهنة الجمالة، حيث كان هو وصحبه ومن شاركهم في هذه المهنة يحملون أمتعة المسافرين والتجار على جمالهم، لكنه مع الأسف لم يذكر لنا تقاليدهم المتبعة في هذه المهنة، من حيث الأجور: هل تحسب بحساب الزمن ونوع الأمتعة، أو بالمسافة وكمية الأمتعة؟ كما أنه لم يشر إلى أساليب التعاون وكيفية تطبيقها بين الجمالين. ولم يشر إلى كيفية التعامل والتبادل التجاري الذي كان معمولا به في المراكز التجارية ببلاد السراة، ولا إلى الأعراف التجارية والعقود المبرمة بين أصحاب المهن والتجار في كل من حواضر اليمن والحجاز كالطائف ومكة المكرمة، والمدينة المنورة،

وصنعاء وصعدة، وغيرها من الحواضر الأخرى، حيث نشطت التجارة في هذه الحواضر منذ أمد بعيد حتى أصبح لها تراث تجاري زاخر في التقاليد والأعراف التجارية، وهذا ما أشاد به الهمداني وغيره من أصحاب المؤلفات الجغرافية، خاصة ممن كانت مؤلفاتهم في ذكر الأقاليم، وما يوجد بها من خيرات، وذكر المسافة فيما بينها(٦٥). وخصّ الهمداني الطرق التجارية التي كانت تربط الحجاز باليمن مارة ببلاد السراة، ابتداء من صنعاء وانتهاء بمكة المكرمة، فذكر الطريق الممتد من صنعاء مارا بصعدة، فجرش، فبيشة حتى الطائف ثم مكة المكرمة، والطريف في الأمر أن الهمداني ذكر طول المسافة بين كل محطة وأخرى بالأميال، وهذا يعكس لنا دقته في قياس طول الطريق أثناء ذهابه وإيابه فيها(٦٦). وذكر الطريق الساحلي الذي يربط الحجاز باليمن مارا بالسهول الواقعة على الساحل بمحاذاة البحر الأحمر، ذاكرا المراكز والمحطات التي يمر بها بعد مروره من اليمن، ومن تلك المراكز، حلي، وقنونا، ودوقة، والسرين والليث، وغيرها حتى يصل مكة المكرمة. وهناك له طريق تجاري آخر يصل حضرموت بمكة المكرمة، ويلتقي مع طريق صنعاء - مكة المكرمة - السابق الذكر - في محطة تبالة(٦٧).

الحياة العلمية والفكرية:

وكان الجو العلمي والفكري في السراة مناسبا لنمو البذور العلمية بسبب وضع السراة المميز ما بين اليمن والحجاز، حيث وجد فيها كثير من المراكز الحضارية والفكرية، والأهم منها الحرمان الشريفان في مكة المكرمة، والمدينة المنورة، وقصد الناس إليهما على مختلف مستوياتهم العلمية، لأداء فريضة

الحج، وربما للاستقرار في إحدى الحاضرتين لمجاورة أحد الحرمين، إلى جانب ما تمتعت به المدينة المنورة من مركز سياسي مرموق أيام كانت عاصمة الدولة الإسلامية في زمن الرسول ـ ﷺ ـ وزمن الخلفاء الراشدين. ومع انتقال عاصمة المسلمين إلى دمشق في بلاد الشام أيام الأمويين، إلاَّ أن هذا الانتقال لم يقلل من أهمية الحاضرتين، لا سيما من الناحية العلمية، لأنهما بقيتا مركز استقطاب للعلماء في مختلف التخصصات، ولكون بلاد السراة تقع ما بين اليمن والحجاز، فلا بدّ أن تنال قسطا من العلم سواء من علماء اليمن أو علماء الحجاز، خاصة وأنها معبر لأهل اليمن أثناء توجههم لمكة والمدينة. والقارئ لكتب التراجم وغيرها من كتب الأولين، ككتاب الطبقات لابن سعد، وأسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير، والإصابة في تمييز الصحابة، وتهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني، والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي، وسير أعلام النبلاء للذهبي، كل هذه الكتب وغيرها يجد فيها القارئ معلومات قيمة عن علماء وفقهاء، وشعراء، وأرباب سيف وغيرهم، عاشوا في حواضر هذين القطرين (اليمن والحجاز)، وفي غيرهما من حواضر العالم الإسلامي كالكوفة، والبصرة، ودمشق، وبغداد، وغيرها، وبعضهم كانوا سراة المولد، حجازيون، أو يمنيون، أو كوفيون، أو بغداديون، أو دمشقيون بالاستقرار. ولكن مع الأسف لم نجد لهذه المنطقة (السراة) ذكرا واسعا وصريحا في مثل هذا المجال. ولعل السبب في ذلك يعود إلى اهتمام المؤرخين والمؤلفين بشكل عام بالمراكز الحضارية الشهيرة في العالم الإسلامي أكثر من اهتمامهم بالمناطق المغمورة، والواقع أن منطقة السراة ظلت منسية ردحا طويلا من الزمن، ولهذا وجب علينا أن نقوم بالبحث عن المصادر التي تعرضت لها لكي نظهرها للوجود حتى تكون غذاء دسما وضروريا للأجيال

القادمة.

وها هو الهمداني ـ يرحمه الله ـ يدون لنا معلومات قيمة استفدنا منها الكثير في معرفة أحوال المنطقة من جميع الجوانب، لكن على الرغم من أهميتها، فإنها لم تف بالمطلوب في معرفة الحياة العلمية وأساليب التعلم فيها، وفي التعرف على الشعراء والأدباء الذاهبين إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة، أو ذهابهم هم أنفسهم إلى المدينتين المقدستين والاجتماع برجال العلم والفكر فيهما، ومن أبرز الشعراء الذين عرفناهم في بحثنا هذا الشاعر أبو الحياش الحجري الذي ينتسب إلى الحجر بن الهنو ببلاد سراة الحجر الذي ورد ذكره أثناء تجمع بعض الشعراء من نجد والحجاز والسراة في مكة المكرمة، وكان أبو الحياش يمثل أهل السراة، عندما غلب على الناس القحط وقلة الأمطار، فأنشد الشعراء قصائد شعرية ليتوسلوا فيها إلى الله جل جلاله طالبين الرحمة والغيث، وقد ذكر الهمداني بعض تلك القصائد التي قالها الشعراء المختلفون في مكة المكرمة[٦٨]، وقد أورد القصيدة التي قالها أبو الحياش، فقال في مطلعها:

ربّ ما خاب من دعاك ولا يحـ ـجب يا ذَا الجلال عنكَ الدُّعاءُ
لم يخبْ للنّبي يعقوب يا ذا الـ ـعرش فيها دَعا لديك الرجاء
رب أنت الذي رددت عليه بصرا كان قد محاه البكاء

ثم جاء إلى وصف الأرض التي عمها القحط فكان أغلب ما ذكر مواطن ببلاد تهامة والسراة، فقال:

رحمة منك هَب لنا إننا نحـ ـن لكَ الله أعبُدٌ وإماءُ
إن هاتا لأزمةٌ عمت النا س ومَسَّتْهُمُ لها البأساءُ
ولكم ثم كم سقيت لنا الأر ض غيوثاً أتت بها الأنواء
سقيت برهة قرى خلب منـ ـها فجازان تلك فالصبياء

فقـرى بيش، فـالـدويمات فـالبر ـــك فحلي معطـورة غينـاء
ومن الطـود فـالـزتـامـات خضر رويت فـالتنـومـة الـزهـراء
فقرى الحجـر جهـوة الـزرع والضر ع فأشجـانها الحنـا فـالجبـاء
فجبـال السراة فـالفـرع الوسـ ـطى حكين الجنـان فـالحيفـاء
فـالـذرى من سراة غـامـد فالنمـ ـرفأجبال دوسهـا طخيـاء
فقـرى الـدارتين أرض على سهلهـا والجبـال منهـا الماء
فقنـونـا فـأرض دوقـة فـالليـ ـث فعشم السريـن فـالسراء(٦٩)

ويستنتج القارئ من قراءته لهذه الأبيات حرص الشاعر أبي الحياش على ذكر أسماء بعض الأماكن والمواقع في بلاده (أرض تهامة والسراة) وقد حاول عد البعض منها، وبين حرصه مع صبغ عاطفته على جميع الأماكن التي ذكرها، راجيا من الله أن يشملها برحمته بنزول الغيث عليها. كما يستخلص أيضا من مشاركته مع غيره من شعراء شبه الجزيرة العربية أن بلاد السراة كانت غير خالية من العلماء والأدباء والشعراء، ولو لم يكن ذلك لما كان هذا الشاعر السروي قام وأخذ نصيب المشاركة مع غيره من الشعراء، وبخاصة في حاضرة مكة المكرمة التي عرف عنها النشاط الفكري والثقافي منذ عهود قديمة، ولكن كما ذكرنا سابقا أن النسيان وعدم التدوين عن هذه البلاد جعلا الكثير من تراثها يندرس ويضيع.

ومن معوقات العيش في بلاد السراة، فلم يكن الهمداني ينسى ذكر بعضها، وبخاصة القحط وقلة الأمطار، كما ورد معنا، وكذلك غلاء المعيشة وقلة الأطعمة وغيرها من العوائق التي قال عنها: «أصاب الناس أزمة شديدة مكثوا سنة جرداء سموها سنة الجمود، لجمود الرياح فيها، وانقطاع الأمطار، وذهاب الماشية وهزالها، وثبات الغلاء، وقلة الأطعمة، وتصرم المياه في الأودية

والآبـار»[٧٠] . ومثل هــذه المشـاكل لا بــد أن تكـون قــد أثـرت على الحيــاة الاجتماعيـة ، والاقتصـادية ، والفكـريـة ، أيضـا قـد لا تكـون معوقـات الحيـاة مقصـورة على مـا أورد الهمـداني ، ولكن مـن المحتمل أن يكـون هنـاك عـوائق أخرى ، البعـض منها قـد يكون سياسيـا أو اقتصاديـا واجتماعيا . ومـن يعرف أحـوال العشـائر والقبـائل العـربية ولا سيما البعيـدة عن المراكـز السيـاسيـة في العصـور الإسلاميـة الوسطى ، فـلا بـد أن يدرك أن الفـوضى والسلب والنهب والحروب القبليـة كانت جـزءا من حيـاة أفراد العشيرة أو القبيلـة الواحـدة ، ولا يستبعـد أن تكـون بـلاد السراة ، بما فيها من عشـائر وقبـائل ، كـانت من أكثـر المناطق امتلاءً بالفوضى والصراعات القبلية ، وذلك لكثرة القبائل المتعددة بها ، ولبعدها عن مراكز القيادة والإدارة المركزية في عواصم الخلافة الإسلامية .

الخـــاتمـــة

وبهذا فالحسـن الهمداني يعد رائدا في كتـاباتـه عن بلاد السراة ، فلم يكن يقصر تـدوين ملاحظـاته على مـواطن القبائل وتـوزيعها ، لكنـه أضاف أشيـاء مفيدة في جوانـب علمية مختلفة .

وبعد فقـد تميز البحث في الكشف عن نقاط غـامضة ، وأخرى مبهمة ، فقـد تطرق إلى مـوقع السراة مبينـا أهميتـه ، وإلى اسم المنطقــة وسبب هـذه التسميـة ، واختـلاف الاسم الحديث عنه ، كما أشار البحث إلى الناحية الاجتماعية مبينا مواطن القبائل ، ونظام الموائد ، وطرق الطهي ، وأسماءه ، وأشـار إلى المراكز التجاريـة وأثرهـا في نمو المراكز الحضـارية ، والازدهار الثقـافي الناجم عـن توسطها بين مـركزيـن مهمين ، اليمن والحجاز ، وخـاصة الأخير الذي لايزال يتمتع بشهرة كبيرة بسبب وجود الحرمين الشريفين فيه .

ومـا أشرنا إليـه في هـذا البحث قد يفتح الآفـاق لبعض البـاحثين ، وبخاصـة من أهل السراة أنفسهم ، لأنهم أدرى بمــواطنهـم من غيرهـم فيضيفــوا بــالتحليل أو النقــد أو التصحيح لكل مـا تم إيراده ، آملين من الله التـوفيق والسـداد في بناء هـذا الصرح العلمي لهذه المنطقة التي لايزال الكثير من قضاياها التاريخية بحاجة إلى جهود الباحثين والدارسين لإبرازها .

الهـــوامش والتعليقـــات

١ ـ انظر: الحسن بن أحمد الهمداني. الإكليل من أخبار اليمن وأنساب حمير، تحقيق محب الدين الخطيب (بيروت: دار المناهل، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م) ص ٢٥ وما بعدها، جرجي زيدان. تاريخ آداب (القاهرة: دار الهلال، تاريخ النشر غير معروف)جـ٢، ص ٢٠٩ ـ ٢١٠.

٢ ـ الحسن بن أحمد الهمداني. صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي، وإشراف حمد الجاسر (الرياض: منشورات دار اليمامة، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م) ص ٣٥٦، وللمزيد من التفصيلات عن حياة الهمداني: انظر:، المقدمة التي كتبها حمد الجاسر في أوائل صفة جزيرة العرب، وقاموس الأعلام، لخير الدين الزركلي، (طبعة بيروت، ١٩٨٠م) جـ٢، ص ١٧٩.

٣ ـ انظر: مقدمة الجاسر في كتاب صفة جزيرة العرب، ص ١٨.

٤ ـ انظر: : تفصيلات أكثر عن الحجاز، بما فيه بلاد السراة المعنية في هذا البحث، صالح أحمد العلي «تحديد الحجاز عند المتقدمين» مجلة العرب جـ١ (١٣٨٨هـ/ ١٩٧٨م) ص ١ ـ ٩، عبد الله الوهيبي «الحجاز كما حدده الجغرافيون العرب» مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود (الرياض سابقا) (١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م) جـ١، ص ٥٣ ـ ٧٠.

٥ ـ الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ١١٥ وما بعدها، عبد الله بن عبد العزيز البكري، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفى السقا (بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، انظر: مقدمة المحقق، ص ٨ ـ ١٣، جـ٣، ص ٧٣، شهاب الدين ياقوت. معجم البلدان (بيروت: دار صادر، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م) جـ٢، ص ٢١٨ ـ ٢٢٠، جـ٣، ص ٢١٧ ـ ٢١٨.

٦ ـ الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٦٤.

٧ ـ المصدر نفسه، ص ١٠٥ وما بعدها.

٨ ـ المصدر نفسه، ص ١١٩ ـ ١٢٠.

٩ ـ المصدر نفسه، ص ٢٦٠ ـ ٢٦١.

١٠ ـ المصدر نفسه.

١١ ـ المصدر نفسه، ص ٣٧٤.

١٢ ـ جرش من أعظم المراكز الحضارية في بلاد السراة خلال القرون الإسلامية الأولى، وقد كان يطلق عليها أحياناً مخلاف جرش، وربما تأتي في المرتبة الثانية بعد الحواضر اليمانية الكبرى، كصنعاء وصعدة وغيرهما، وللمزيد من التفصيلات عن موقعها وأهميتها انظر: . البكري. معجم ما استعجم مج١، جـ١ـ٢، ص ٣٧٦، ياقوت. معجم البلدان جـ١، ص ١٢٦ ــ ١٢٧، محمد أحمد معبر. مدينة جرش من المراكز الحضارية القديمة (خميس مشيط: دار جرش للنشر والتوزيع، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص ١١ ـ ٣٥، حمد الجاسر. «جرش قاعدة الأزد» مجلة العرب، جـ٧، السنة الخامسة، محرم/ ١٣٩١هـ، ص ٥٩٣ ـ ٦٠٠.

١٣ ـ والعواسج يقطنون اليوم في وادي ابن هشبل، ببلاد شهران، ويطلق عليهم العواشز حتى يومنا هذا.

١٤ ـ الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٢٥٥.

١٥ ـ المصدر نفسه، ص ٢٥٦.

١٦ ـ المصدر نفسه، ص ٢٥٨.

١٧ ـ المصدر نفسه، ص ٢٦١.

١٨ ـ المصدر نفسه.

١٩ ــ جرير بن عبد الله البجلي كان من الذين وفدوا على الرسول ﷺ من وفد بجيلة، وكان له مساهمات عظيمة في توطيد الإسلام بين أهل السراة، وكذلك في ميادين الفتوح الإسلامية المبكرة، وبخاصة في جبهة الجهاد ضد الفرس. للمزيد من التفصيلات عن شخصية جرير بن عبد الله وأعماله، انظر: محمد بن جرير الطبري. تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (بيروت: دار سويدان، تاريخ النشر غير معروف) جـ٣، ص ٣٦٥، ٣٦٩، المنسوب إلى عبد الله بن مسلم بن قتيبة. الإمامة والسياسة، تحقيق طه الزيني (بيروت: دار المعرفة، ١٣٧٨هـ/ ١٩٦٧م) جـ١، ص ٨٢، أحمد بن محمد بن عبد ربه. العقد الثمين (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م) ص ٣٠٧ـ ٣٠٨.

٢٠ ــ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، جـ٧، ص ١٣٠؛ حمد الجاسر. في سراة غامد وزهران، نصوص، مشاهدات، انطباعات (الرياض: دار اليمامة، ١١٣٩١هـ/ ١٩٧١م) ص٣٥٦.

٢١ ـ للمزيد من التفصيلات عن بلاد غامد وزهران، انظر: كتاب الجاسر المذكور في الملحوظة السابقة.

٢٢ ـ للمزيد من التوضيحات عن قرى وعشائر ومواطن أهل سراة الحجر انظر: ، عمر غرامة العمروي. المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، بلاد الحجر (الرياض: دار اليمامة، ١٤٩٧ ـ

١٣٩٨هـ).

٢٣ ـ وللمزيد عن بلاد عسير وشهران، انظر: هاشم النعمي. تاريخ عسير في الماضي والحاضر، مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر، مكان وتاريخ النشر بدون): محمود شاكر. عسير (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م)؛ عبد الكريم عائض سعيد آل طالع. قبيلة شهران بين الماضي والحاضر (الرياض: المطابع الأهلية، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م).

٢٤ ـ الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ١١٩ ـ ١٢٠.

٢٥ ـ المصدر نفسه.

٢٦ ـ المصدر نفسه

٢٧ ـ للمزيد من التفصيل عن وضع القبائل العربية في العصر الجاهلي، والعصور الإسلامية المختلفة، وكيف كانت العشائر والقبائل الصغيرة تدخل في حماية القبائل الكبيرة، وبالتالي يغلب اسم القبيلة الكبيرة على أسماء القبائل الصغيرة التي دخلت تحت حمايتها. انظر: ، جواد علي. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٧م ـ ١٩٧٨م) ط٢، جـ٢، ٣، ٤.

٢٨ ـ الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٢٦٠، الجاسر، في سراة غامد وزهران، ص ٣٥٦.

٢٩ ـ انظر: : الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٢٦٠ ـ ٢٦٢.

٣٠ ـ للمزيد من المعرفة عن أسماء ومواقع هذه الأماكن بسراة الحجر، انظر: عمر غرامة العمروي، بلاد رجال الحجر، ص ٥١ وما بعدها.

٣١ ـ انظر: الهمداني، المصدر السابق، ص ٢٥٥ وما بعدها.

٣٢ ـ وللمزيد من التفصيلات عن حديث الهمداني حول جرش وبلاد الحجر، انظر: ، صفة جزيرة العرب، ص ٢٥٥ ـ ٢٦٢.

٣٣ ـ لمزيد من المعلومات عن وفد جرش الذي قدم على الرسول (ﷺ). انظر: ، عبد الملك بن هشام. السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا (مكان وتاريخ النشر غير معروفين) مج٢، جـ٤، ص ٥٨٦ ـ ٥٨٨، محمد بن سعد. الطبقات الكبرى (بيروت: دار صادر، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م) جـ١، ص٣٣٧ ـ ٣٣٨.

٣٤ ـ أحمد بن واضح اليعقوبي. كتاب البلدان (تحقيق إم دي غوي (ليدن: مطبعة بريل، ١٨٩١م) ص ٣١٧ـ٣١٨.

٣٥ ـ انظر: محمد أحمد معبر. المرجع السابق، ص ٣٧ ـ ٤٤.

٣٦ ـ للمزيد من التفصيل عن مدينة جرش، تاريخها، وموقعها، انظر: محمد أحمد معبر، المرجع السابق،

ص ١١ وما بعدها، حمد الجاسر «جرش قاعدة الأزد»، ص ٥٩٣ وما بعدها.

٣٧ ـ لمزيد من التوضيحات عن القبائل القحطانية (الأزدية) والعدنانية في بلاد تهامة والسراة، انظر: . هشام بن محمد الكلبي، جمهرة النسب الكبير، رواية السكرى عن ابن حبيب، تحقيق ناجي حسن (بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨١م)، علي بن أحمد بن حزم الأندلسي. جمهرة أنساب العرب (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م) ص ١٨ وما بعدها، عمر بن غرامة العمروي. قبائل إقليم عسير في الجاهلية والإسلام (أبها: نادي أبها الأدبي، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م)، جـ١، ص ٥٧ وما بعدها.

٣٨ ـ الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ١١٩ ـ ١٢٠.

٣٩ ـ النشاط التجاري خلال العصور الإسلامية الوسطى كان جيدا، وبخاصة في مكة المكرمة، والمدينة المنورة بالحجاز، وصنعاء وصعدة وغيرهما من مدن اليمن الكبرى، إلى جانب وجود طرق تجارية، برية وبحرية، نشيطة تربط تلك الحواضر مع أجزاء عديدة في العالم الإسلامي آنذاك. وللمزيد من التفصيل انظر: في المصادر والمراجع التالي ذكرها. شمس الدين محمد بن أحمد المقدسي. كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق، إم دي غوي (ليدن: مطبعة بريل، ١٨٧٦م) ص ٧٩، ٩٧، محمد بن أحمد بن جبير. رحلة ابن جبير (بيروت: اسم الناشر وتاريخ النشر غير معروفين) ص ٩٦ وما بعدها؛ ناصر الدين خسرو القبادياني المروزي. رحلة ناصر خسرو، ترجمة وتقديم أحمد خالد البدلي، (الرياض: عمادة شؤون المكتبات ـ جامعة الملك سعود، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م) ص ١٢١ وما بعدها؛ غيثان علي جريس. «الطرق التجارية البرية والبحرية المؤدية إلى الحجاز خلال القرون الإسلامية المبكرة» مجلة العرب، جـ٧، ٨، السنة (٢٦)، ١٤١٢هـ، ص ٤٤٧ ـ ٤٦١.

٤٠ ـ الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦.

٤١ ـ كان العرب في صدر الإسلام ولا سيما في العهد الأموي يسمون غير العرب من المسلمين بالموالي، وكان المسلمون في البلاد العربية، كالعراق، والشام، والحجاز وغيرها قد ألفوا عادة الانتماء بالولاء إلى من يريدون من الشخصيات العربية المرموقة والانتساب إلى قبائلها اسميا، وإن لم يكونوا منها فيكتسبون بذلك بعض حقوق القرابة بالنسب، كالمساعدة، والحماية، والتأييد. ومن الموالي أيضا من كان في منزلة الرق ثم أعتقوا من قبل ساداتهم فصاروا في مكانة أخرى بين الرق والحرية هي منزلة الولاء أو الموالي. للمزيد من التفصيل عن الولاء انظر: محمد بن منظور لسان العرب، نسقه وعلق عليه علي شيري (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م) جـ١٥، ص ٤٠١ ـ

٤٠٦ .

٤٢ ـ عبد الرحمن محمد بن خلدون. تاريخ ابن خلدون (بيروت : دار العلم للجميع، تاريخ النشر غير معروف) جـ١، ص ٣١٨ وما بعدها .

٤٣ ـ انظر: تفصيلات أكثر: الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٣٤٤ وما بعدها؛ وللمزيد من التوضيحات عن الحياة الاجتماعية في حواضر اليمن، وبخاصة في صنعاء وما حولها، انظر: المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٨٤ وما بعدها؛ أحمد بن عمر بن رسته. كتاب الأعلاق النفسية، تحقيق. إم دي غوي (ليدن: مطبعة بريل، ١٨٩١م) ص ١٠٩ ـ ١١٥ .

٤٤ ـ الهمداني، المصدر السابق، ص ٢٥٧ .

٤٥ ـ الهمداني، المصدر نفسه ص، ٢٥٦، ٢٥٧ .

٤٦ ـ المصدر نفسه، ص ٢٦١ .

٤٧ ـ لمزيد من المعلومات عن الحياة التجارية في اليمن والحجاز وعلاقة تلك الأجزاء ببلاد السراة، انظر: ابن جبير، الرحلة، ص ١٠٠ وما بعدها، جريس «الطرق التجارية . .» ص ٤٤٧ وما بعدها، أحمد عمر الزيلعي. مكة وعلاقاتها الخارجية ٣٠١ ـ ٤٨٧هـ (الرياض: عمادة شئون المكتبات بجامعة الرياض، ١٩٨١م) ص ١٥٥ وما بعدها .

٤٨ ـ الهمداني، صفة ص ٣٤٠، ٣٥٦ .

٤٩ ـ الهمداني، المصدر نفسه ص ٣٤٠ .

٥٠ ـ المصدر نفسه، ص ٣٥٦، والمهادو الخبز الممهود والكشك طعام يتخذ من نقع البرغل بعد اختماره فيفت ويطبخ، الهمداني، المصدر نفسه، ص ٣٥٦، ملحوظة (٢) .

٥١ ـ الهمداني، المصدر نفسه ص ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٠ .

٥٢ ـ المصدر نفسه، ص ٣٦٥، وقد أخبرني بعض المختصين في تاريخ المغرب والأندلس، فذكر أن مثل هذه العادة كانت ولا تزال عند بعض المغاربة، وبخاصة في المغرب الأقصى .

٥٣ ـ انظر: الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٢٧٧ ـ ٢٧٩ .

٥٤ ـ المصدر نفسه، ص ٢٧٩ .

٥٥ ـ المصدر نفسه، ص٢٦٢ .

٥٦ ـ المصدر نفسه، ٢٦٢، ٣٠٢ .

٥٧ ـ المصدر نفسه، ص ٢٦٢ .

٥٨ ـ المصدر نفسه، ص ٢٦١ .

٥٩ ـ من يلاحظ الآبار والمدرجات الزراعية ببلاد السراة، في يومنا هذا يلاحظ الجهد الكبير الذي بذل في بناء مدرجات عالية الارتفاع، لكي تحافظ على تربة المزرعة، وكذلك آبار بعيدة العمق، والتي بعضها حفرت في صخور صماء، وبأدوات يدوية قديمة. حبذا لو خرج أحد أبناء السراة بدراسة علمية جادة تتبع فيها متى وكيف عملت تلك المدرجات الزراعية التي نلاحظها في طول وعرض البلاد، وكذلك تلك الآبار الكثيرة التي يظهر على بعضها قدم العهد.

٦٠ ـ المصدر نفسه، ص ٢٧٦، ٣٠١.

٦١ ـ يعتبر الدينوري من أفضل من كتب عن النباتات وبخاصة في بلاد السراة من بلاد الجزيرة العربية، ومن كتبه التي وصلتنا عن النباتات ما يلي: كتاب النبات، الجزءان الأول والثاني، تحقيق محمد حميد الله، نشر المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، عام ١٩٧٣م، والجزء الثالث، والنصف الأول من الجزء الخامس، شرح وتحقيق المستشرق برنهاردلفين، بألمانيا عام ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

٦٢ ـ وقد جاء بعد الدينوري والهمداني بعض الجغرافيين واللغويين فذكروا أسماء عديدة للأشجار والنباتات الموجودة ببلاد السراة، ومن أولئك العلماء على سبيل المثال لا الحصر، عرام بن الأصبغ السلمي، في كتابه أسماء جبال تهامة وسكانها وما فيها من القرى وما ينبت عليها من الأشجار وما فيها من المياه؛ والبكرى في كتابه، معجم ما استعجم؛ وياقوت الحموي، في كتابه معجم البلدان، وفي بعض المعاجم اللغوية، كالقاموس المحيط للفيروزابادي، ولسان العرب، لابن منظور، وتاج العروس، للزبيدي.

٦٣ ـ للمزيد من التفصيلات عن مهنة الدباغة، كيفيتها، وأساليب مزاولتها، والمواد الأساسية في ممارستها. انظر: «باب الدباغ» المذكور في كتاب النبات، للدينوري، تحقيق المستشرق برنهاردلفين، ص ١٠٤ ـ ١٢١، أيضا انظر: ، كتاب المخصص، لابن سيدة (مطبعة بولاق بالقاهرة، ١٣١٦هـ/ ١٨٩٨م) جـ٤، ص ١٠٤ ـ ١١٦.

٦٤ ـ ولمعرفة بعض التوضيحات عن المهن والحرف بشكل عام خلال القرون الإسلامية الأولى، وبخاصة في المناطق المجاورة لبلاد السراة كحواضر الحجاز واليمن. انظر: ، عبد العزيز إبراهيم العُمري. الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول (الدوحة: مركز التراث الشعبي، ١٩٨٥م) ص ٤٧ وما بعدها: عبد الله محمد السيف. الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م) ص ١٥١ ـ ١٦٨؛ جميل حرب محمود. الحجاز واليمن في العصر الأيوبي (جدة: دار تهامة للنشر، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م) ص ١٢٦ ـ ١٢٨، ١٤٨ ـ ١٥٠؛ غيثان علي جريس «أهم الحرف والصناعات في الحجاز خلال القرون الإسلامية المبكرة» مجلة المنهل عدد (٤٩٢) مج ٥٣ (١٤١٢هـ) ص ٨٢ ـ ٩٦.

٦٥ ـ لمزيد من التفاصيل عن النشاط التجاري في حواضر اليمن والحجاز خلال العصر الإسلامي الوسيط. انظر: المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٨٤ وما بعدها؛ ابن جبير، الرحلة، ص ٩٦ وما بعدها، الزيلعي. مكة وعلاقاتها الخارجية، ص ١٥٥ وما بعدها، جميل حرب، الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، ص ١١٧ ـ ١٥٩.

Patricia Crone. **Meccan Trade and the Rise of Islam** (Oxford): Basil Blackwell Ltd., (1987): Abdullah Alwi Hassan." The Arabian Commercial Background. **Islamic Culture** (Vol. LXI. No. 2. April, 1987, p. 70-83.

٦٦ ـ حول شرح الهمداني لأطوال تلك الطريق التي تربط بين صنعاء والطائف مرورا بالسراة، انظر: صفة جزيرة العرب، ص ٣٣٨ ـ ٣٤٠. لم يكن الهمداني هو الوحيد الذي ذكر تلك الطريق، وإنما بعض من الجغرافيين الأوائل أشاروا إليها أيضا مثل: اليعقوبي، البلدان، ص ٣١٤ وما بعدها، عبيد الله بن عبد الله بن خرذاذية. المسالك والممالك تحقيق، إم. دي غوى (ليدن: مطبعة بريل، ١٣٠٦هـ/ ١٨٨٩م) ص ١٣٣ وما بعدها، وضمن هذا الكتاب، كتاب الخراج وصنعة الكتابة. لأبي الفرج قدامة بن جعفر، الذي أشار أيضا إلى ما أشار إليه اليعقوبي وابن خرداذبه، ص ١٩١ وما بعدها، انظر: أيضا، الإمام أبا إسحاق الحربي، كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة، تحقيق حمد الجاسر (الرياض: منشورات دار اليمامة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م) ص ٦٤٣ ـ ٦٤٩.

٦٧ ـ الهمداني، المصدر السابق، ص ٣٤١ ـ ٣٤٣.

٦٨ ـ انظر: تلك الأشعار في كتاب، صفة جزيرة العرب، ص ٣٧٨ ـ ٣٨٤، وأيضا انظر: تفصيلات أكثر في مقالة عبد الله الناصر الوهيبي «تحديد الشعراء العرب للمواقع الجغرافية».

بحث مقدم في الندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية، مصادر تاريخ الجزيرة العربية، (١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م) جـ١، ص ٣٦٣ ـ ٣٧٥.

٦٩ ـ الهمداني، المصدر السابق، ص ٣٨١ ـ ٣٨٢.

٧٠ ـ المصدر نفسه، ٣٧٨.